لكن ترك الريف الفلسطيني وشأنه لم يحل دون ممارسة سياسة العسف والتنكيل على الاقطاعات الفلسطينية التي أصبحت ملكاً للعوائل الأوروبية، الأمر الذي دفع بعض الأهالي للهجرة فضلاً عن أن الظلم قد أذكى مشاعر الجهاد والعداء للصليبيين.

ويقدر بعض الباحثين عدد المستوطنين الأوروبيين في فلسطين بأكثر من ١٠٠ ألف مستوطن سكنت أغلبيتهم في المدن.

ومفيد هنا، التنويه، إلى تعرض المجتمع الفلسطيني لضربات قوية أطاحت بالحياة المدنية، وهجرة الكثير من أهل البلاد بما يشبه التطهير العرقي الاحلالي، سيما في المدن الساحلية، وهذا يذكرنا بما تعرض له الفلسطينيون لاحقاً عام ١٩٤٨، وحتى بعد تحرير المماليك لفلسطين من القبضة الأوروبية، اضطر هؤلاء لتدمير الموانئ والمدن الساحلية التي تحولت لخرائب، كتاكيتك اتبعه صلاح الدين من قبل، أي خطة دفاعية، تحسبا من غزوات الأساطيل الأوروبية، أفضى هذا بالتالي إلى ركود اقتصادي في الأسواق والأرياف الفلسطينية، وبالمقابل نشأت مدن جديدة أهمها صفد، وانتعاش الحياة الدينية والتجارية في مدينة القدس وسواها.

وبناءً على الأكاديمي عثامنة (لم تساهم الأوضاع الأمنية المضطربة التي سادت فلسطين وبلاد الشام في العهد الأيوبي والتي امتدت قرابة ثلاثة أرباع القرن، في إعادة توطين المدن الفلسطينية، إذ أصبحت مسرحاً للصراعات والتنافس على السلطة بين ورثة صلاح الدين من أبنائه ثم ورثة أخيه العادل، مع ما يرافق هذا التنافس المسلح الدامي أحيانا من تفريط بالمناطق الفلسطينية المحررة استرضاء للفرنجة... ثم تعرض النمو السكاني في فلسطين لضربة قاضية جراء الغزو المغولي الجارف بما صاحبه من تقتيل ونهب، ففر أهل فلسطين بقضهم وقضيضهم نحو مصر... والزلزال الرهيب في ١٢٠١م الذي شمل المناطق الواقعة في أيدي المسلمين وقبضة الفرنجة على حد سواء... ففي نابلس وحدها مات تحت الردم ٣٠ ألفاً... وتكرر الزلزال الرهيب ١٢٩٣م الذي دمر مدنا وتجمعات سكنية مركزية كغزة والرملة... ومرض الطاعون ١٣٤٨م الذي أفنى البشر والبهائم في صفد ونابلس والقدس ويافا والرملة والأرياف وبيسان والأغوار. ففي غزة وحدها مات ٢٢ ألفاً، وفي جنين لم يفلت سوى امرأة واحدة)[٧٤].

وإن لم يكن ثمة إحصاءات دقيقة عن عدد سكان فلسطين في الحقبة الصليبية وما تلاها في

---

٧٤) د. عثامنة، مرجع سابق. ص٢٥٣ – ٢٥٤